مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

تقـــــارير

إلى أين تتجه العلاقات العربية الإفريقية بعد موت القذافي؟

محمد سالم ولد محمدو *
لوك أوبالا**

٢٧ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١١

Al Jazeera Centre for Studies
Tel: +974-44663454
jcforstudies@aljazeera.net
studies.aljazeera.net

فرح الليبيون والكثير من العرب بمقتل القذافي، ورأوا في موته خلاصا من اثنتين وأربعين سنة من الحكم المتسلط، ومن تبديد الثروات الليبية الهائلة، ومن التضييق على السكان في الداخل ومصادرة حرياتهم، ومن تشريد المعارضة في الخارج نفيا أو تقتيلا...

وفي الوقت نفسه كانت إفريقيا ساسة ونخبا وإعلاما تبكي "ملك ملوكها" وترى فيه الثوري المناضل والأخ المعين والزعيم الوحيد الذي قدم لها من التمويلات ما دعم البنى التحتية وأسس شركات الاتصال الكثيرة ونهض بالقطاعات المصرفية في قارة تركها العالم أجمع لتواجه مصيرها وحدها وقد تكالبت عليها الحروب والفقر والكوارث الطبيعية والأوبئة...

لماذا إذن ينظر إلى القذافي من زوايا مختلفة؟ وكيف كان القذافي مستبدا في ليبيا غير مرغوب فيه عربيا، لكنه من ناحية أخرى كان بطلا في إفريقيا؟ وكيف ستتعامل السلطات الليبية الجديدة مع الملف الإفريقي؟ وكيف سيكون مصير العلاقات بين العرب وإفريقيا بشكل عام؟ طرح مركز الجزيرة للدراسات هذه التساؤلات على كاتبين: عربي وإفريقي لمعرفة معنى هذه الازدواجية وللتطلع إلى مستقبل هذين العالمين العربي والإفريقي المتقاربين واقعا وتطلعات والمشتركين في أهم التحديات والمشاكل؛ فكانت إجابتهما كالتالي:

- العالم العربي وإفريقيا ما بعد القذافي.. وجهة نظر عربية

يرى *محمد سالم ولد محمد* أن رحيل القذافي سيطوي صفحة مثيرة من العلاقات العربية الإفريقية، شابها كثير من الاضطراب ثم تميزت بكثير من الحميمية والتوافق، وستظل إفريقيا، رغم ضعفها الاقتصادي وتشتت قرارها السياسي، عمقا استراتيجيا للعرب وحليفا شبه دائم للقضايا العربية والإسلامية مما يتطلب سياسة جديدة...

- العالم العربي وإفريقيا ما بعد القذافي.. وجهة نظر إفريقية

يرى *لوك أوبالا* أن العديد من الدارسين يتسرعون بالقول إن العلاقات المستقبلية بين ليبيا وبقية الدول الأفريقية ستكون صعبة غير أن الأمر سابق لأوانه، فسوف تظهر عوامل عديدة وسيحتاج النظام الجديد إلى أصدقاء بداخل أفريقيا وبخارجها خصوصا وأن إفريقيا تتمتع بموارد عديدة تحتاجها ليبيا...

العالم العربي وإفريقيا ما بعد القذافي.. وجهة نظر عربية

*محمد سالم ولد محمدو**

قليلون جدا هم من سيبكي القذافي في ليبيا.. هكذا على الأقل يؤكد قادة الثورة وقد واروا "ملك ملوك" إفريقيا في الصحراء وفي قبر مجهول، لكن ليست الصورة هكذا دائما فهنالك في إفريقيا يوجد الآلاف من النخبة والساسة وحتى المواطنين الذين ينظرون إلى القذافي نظرة إكبار وإجلال وفي أسوء الحالات فإنهم يعتبرون قتله عملا لا إنسانيا ضد زعيم استطاع بقوة المال والعلاقات الواسعة الدخول إلى قلب إفريقيا.

يحق التساؤل لماذا يبكي الأفارقة القذافي، ولماذا القذافي وحده دون غيره من قادة العالمين العربي والإسلامي، وإلى أي مستقبل ستتجه العلاقة بين إفريقيا القذافي ونظام الثورة في طرابلس، وأكثر من ذلك هل من علاقة عربية إفريقية جديدة.

نحو إفريقيا

منذ وصوله إلى الحكم قبل اثنتين وأربعين سنة، وحتى مغادرته الدنيا ظل القذافي عنصرا بارزا في المشهد الإفريقي، وبأساليب مختلفة جمعت بين التدخل العسكري والتجاذب السياسي والإغراء المالي واستطاع القذافي انتزاع مكانة يمكن وصفها بالسامية لدى الأفارقة، غير أن هوس القذافي بالزعامة وحرصه على توسيع دائرة ملكه لم يكونا السند الأوحد لزعامة القذافي الذي استفاد من معطيات وظروف دولية أبرزها:

- غياب توجه عربي أو إسلامي جاد تجاه إفريقيا، فمنذ رحيل الزعيم المصري جمال عبد الناصر تراجعت إفريقيا في دائرة الاهتمام العربي، ليجد القذافي -وهو يعتبر نفسه خليفة عبد الناصر- الفرصة السانحة للتوغل داخل إفريقيا.

- غياب زعامات إفريقية وازنة تمتع بالكارزمية الجماهيرية والطموح السياسي، وتستند إلى قوة اقتصادية قادرة على رفد الطموح السياسي.

غير أن هذين العاملين وإن أطرا لسنوات طويلة حرص القذافي على الزعامة، فإن عاملين آخرين دفعا مواقف القذافي تجاه إفريقيا إلى مزيد من الرسوخ بفعل:

- توتر العلاقات العربية الليبية بشكل خاص والخذلان العربي الكبير للقذافي ونظامه وهو يواجه الحصار السياسي، بل إنه عندما انسحب القذافي من الجامعة العربية ووجه انتقادات لاذعة للعرب، لم يكن أمام العقيد غير الحصن الإفريقي لممارسة هوايته نحو الزعامة.

- انكسار حلم القوة العسكرية الليبية، بعد تسليم القذافي ترسانته النووية إلى الغرب وتطبيعه للعلاقة مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي ورضوخه للمطالب الغربية.

وباجتماع تلك العوامل تأسست رؤية القذافي تجاه إفريقيا، وانطلقت طموحاته تجمع بين سطوة الحروب والقوة العسكرية وإغراء المال والدعم الاقتصادي.

وبالنسبة للأفارقة الذين وجدوا أنفسهم في مرمى نيران القذافي ومجرى دعمه الاقتصادي فقد أداروا العلاقة بكثير من التوجس والحنكة، وأخيرا بكثير من البراغماتية والاستغلال السياسي والاقتصادي لسخاء القذافي، في سبيل الحصول على الزعامة، وحصد ألقاب المجد الإفريقية.

كما أن قطاعات واسعة من الجماهير الإفريقية المسحوقة، نظرت بإعجاب دائم إلى شعارات القذافي المناوئة للغرب وتمجيده المتزايد لمقولات الوحدة الإفريقية، إضافة إلى قدرته الفاعلة على استقطاب الزعامات الدينية والسياسية في إفريقيا عبر الهدايا والأعطيات السخية التي ظل يدرها على الأفارقة لأكثر من ثلاثين سنة.

ولقد وجد القذافي بجدارة في إفريقيا ما عجز عن تحصيله عربيا ودوليا من دعم ومساندة سياساته في أحلك الظروف، كما وجد الأفارقة في العقيد الليبي ما يفتقدونه باستمرار في العالم العربي، ويتعلق الأمر بحمل قضايا إفريقيا والسعي إلى دعمها اقتصاديا وسياسيا، وفي إفريقيا فإن من يدعم البنى التحتية ويوفر القروض ويساند الزعامات المحلية سيحظى بكثير من الاحترام.

رحلة الحرب والمال

تتضح الصورة أكثر باستعادة مسار العلاقات الإفريقية الليبية خلال العقود الأربعة الماضية؛ ويمكن القول إن إفريقيا ظلت ركنا أساسيا في دفتر اهتمامات العقيد، الذي حاول في عشرينيته الأولى فرض حضوره السياسي بقوة السلاح وإثارة القلاقل ودعم حركات التمرد المسلحة في أكثر من بلد إفريقي:

ففي التشاد، الجار اللصيق لليبيا، ظل القذافي الحاضر الأبرز في الأزمات السياسية والحرب الأهلية التي عاشتها تلك الدولة منذ استقلالها، ولم يكن قطع العلاقات بين البلدين، بعد سنتين فقط من وصول القذافي إلى الحكم في ليبيا كافيا لوقف تدخل العقيد في الشؤون الداخلية لانجمينا، حيث ظل داعما أساسيا لأطراف الحرب الأهلية بسبب مزاجه المتقلب، قبل أن يعلن في ١٩٨١ عن اندماج كامل بين البلدين، مما أثار غضبا إفريقيا عارما ضد القذافي، الذي سرعان ما أعلن فك الارتباط مع الجار التشادي مع الاحتفاظ باحتلال إقليم أوزو حتى العام ١٩٩٤ حيث حكمت العدل الدولية بأحقية التشاد في الإقليم المذكور.

وفي إثيوبيا ساهم القذافي بقوة في قلب نظام الامبراطور هايلي سيلاسي سنة ١٩٧٤، ليدعم خليفته منغيستو هايلي مريام ذا الميول الماركسية، نظرا لاشتراكهما في العداء للإمبريالية الأمريكية، وليدعما معا حركة تحرير السودان المتمردة في الجنوب، وحتى نهاية الثمانينيات أرسل القذافي أكثر من مائة مليون دولار من المساعدات العسكرية إلى إثيوبيا في مواجهة الثورة الإرترية المشتعلة، قبل أن تسوء العلاقة بين الطرفين بعد استعادة إثيوبيا لعلاقاتها مع الكيان الصهيوني.

وليتوجه القذافي إلى دعم إرتيريا المستقلة، والتي استفادت بشكل كبير من السخاء الليبي في مجالات التعدين والمناجم والاقتصاد البحري والنفط إضافة إلى الدعم السياسي الدائم لنظام آسياس آفورقي الذي ظل ضيفا دائما على طرابلس قبل أن يعلن في ٢٠٠٦ ترجمة الكتاب الأخضر إلى اللغة الإرترية، في سعي منه لعولمة إديولوجيا اللجان الثورية.

وفي ليبيريا دعم القذافي بقوة الميليشيات التابعة لرئيسها السابق شارل تايلور، لينتهي المطاف بهذا الأخير سجينا لدى محكمة العدل الدولية.

في جمهورية إفريقيا الوسطى، حظي الديكتاتور جان بول بوكاسا بدعم قوي من القذافي، دفعه إلى اعتناق الإسلام عدة أشهر، رغم أنه كان متهما بأكل لحوم البشر ضمن اتهامات أخرى بالإبادة الجماعية.

وفي مالي ظل القذافي لسنوات طيلة داعما أساسيا للتوتر والتمرد العسكري ضد حكومات باماكو قبل أن يتحول لاحقا إلى داعم أساسي للتنمية في ذلك البلد الفقير، وطوال سنوات طويلة ظل الهدوء أو الاضطراب في إقليم أزواد المالي، حيث تقطن القبائل العربي والطارقية، مؤشرا أساسيا، لفهم العلاقة بين باماكو وطرابلس، وبعد سقوط القذافي فإن حكومة باماكو لا تعرف اليوم على أي رجل ستقف، فهي لحد الآن لم تعترف بالمجلس الانتقالي في ليبيا، إلا أنها بدأت تستعد لدفع ثمن رحيل القذافي الذي كان داعما أساسيا لاقتصادها الهش، فأسعار الوقود ارتفعت بشكل صاروخي منذ انقطاع النقط الليبي عن مالي مع بداية الثورة، كما أن الشمال

المالي استقبل مئات المقاتلين من الطوارق عائدين بعتاد وفير من ليبيا وربما يحملون فوق ذلك طموحا سياسيا بإقامة دولة مستقلة.

وفي السودان تميزت العلاقة بين القذافي والأنظمة المتعاقبة في الخرطوم بكثير من الاضطراب، ففي عهد الرئيس جعفر النميري تحول القذافي من صديق حميم للنظام السوداني وقد مكنه من الانتقام من عدد من خصومه السياسيين إلى خصم عنيد حاول اغتيال النميري أكثر من مرة، كما ظل داعما أساسيا للمتمردين في منطقة دارفور وجنوب السودان، ولعل في عبارة الرئيس السوداني عمر البشير قبل أسابيع "إن الثوار في مصراتة تحركوا بأسلحة سودانية ردا للصاع على القذافي الذي كان مسؤولا عن الاضطرابات في السودان والهجوم على أم درمان والخرطوم" اختصارا دقيقا للعلاقة بين البلدين.

لكن أموال القذافي ستكون أكثر انسيابا ومؤسسة مع نشأة الاتحاد الإفريقي الذي رعاه القذافي وظل طوال سنوات حكمه يدفع الالتزامات المالية المستحقة علي العديد من الدول الأفريقية الفقيرة تجاه الاتحاد الأفريقي، ولاحقا سيؤسس القذافي الشركة الليبية الإفريقية للاستثمار والتي غطت استثماراتها دولا إفريقيا عديدة من بينها الغابون، الكونغو، بوركينا فاسو، النيجر، مالي، غينيا، التشاد، أوغندا، بنين، ليبيريا، أثيوبيا، مدغشقر، أفريقيا الوسطى، جنوب أفريقيا، زيمبابوي، زامبيا، رواندا، غامبيا، غانا، التوجو، جزر القمر، الكونغو الديمقراطية، إضافة إلى موريتانيا التي أعلن القذافي فيها عن سلسلة مشاريع اقتصادية بغلاف مالي يصل إلى ٥٠٠ مليون دولار، كما أنقذ النظام الموريتاني من أزمة الشرعية الدستورية إثر الانقلاب العسكري الذي قاده الرئيس الحالي الجنرال محمد ولد عبد العزيز ضد الرئيس المنتخب سيدي ولد الشيخ عبد الله في ٦ أغسطس /آب ٢٠٠٨.

دموع إفريقيا

برحيل العقيد يفقد الأفارقة سندا قويا يستحق الأسف والتأبين، وهكذا ففي أقطار أفريقية عديدة، عبرت حكومات وأنظمة سياسية ونخب وزعامات سياسية ودينية عن استيائها من رحيل القذافي، ففي السنغال مثلا – أول بلد إفريقي داعم للثورة الليبية- اعتبر الزعيم الديني ورئيس حزب جبهة التحالفات الوطنية أحمد خليفة انياس أن موت القذافي يشكل خسارة لإفريقيا، وللاتحاد الإفريقي علي وجه الخصوص، وأشار في حديث لتلفزيون دي أس تي في المحلية "أن القذافي كان أكبر مدافع عن الأفارقة في المحافل الدولية ، كما قدم مساعدات سخية لأفريقيا".

واعتبر السياسي السنغالي أنما حصل في ليبيا يعد استعمارا جديدا، لأن القوي التي أسقطت ضرباتها القذافي (بريطانيا، فرنسا، وإيطاليا)، هي ذات القوي التي سبق وأن استعمرت ليبيا، تريد اليوم إعادة احتلالها من جديد.

وفي مالي – لم تعترف الحكومة الليبية لحد الآن بالمجلس الانتقالي رغم أنها سمحت برفرفة علمه على سفارة ليبيا في باماكو، كما أن قطاعات عديدة من المواطنين يشعرون بالأسف لمقتل القذافي وتنقل صحيفة "سيبر برس" المالية عن مواطن مالي قوله "إنهم قتلوا صديقنا القذافي من أجل بتروله.. إنه رجل عظيم أعطى الأفارقة بسخاء".

وفي النيجر فإن زعماء محليين بادروا بسرعة إلى تهديد الحكومة المركزية بالانتقام إذا أقدمت على تسليم نجل القذافي إلى خصومه في المجلسي الانتقالي في طرابلس، تماما كما تحدثت صحيفة نيويورك تايمز عن "حالة حزن" في إفريقيا جنوب الصحراء بعد مقتل العقيد القذافي.

وقد ذكرت وسائل الإعلام بعيد مصرع القذافي أكثر من تصريح حزين لزعماء ودبلوماسيين في أوغندا وزمبابوي والنيجر بعد رحيل القذافي ودفنه بعيدا عن الصحراء، أما إرتيريا الحليف الاستيراتيجي للقذافي فقد عبرت عن استياء شديد بعد رحيل القذافي وخلال فترات الثورة الليبية ظل الزعيم آسياس أفورقي حريصا على إطلاق تصريحات غاضبة تجاه الثوار.

ورغم أن إفريقيا تملك رصيدا كبيرا من الأحزان وقدرة فائقة على التعامل مع جراحها العديدة، فمن المؤكد أيضا أن دموع على القذافي لم تكن دموع تماسيح بقدر ما كانت تعبيرا عن فقدان داعم أساسي لقضايا إفريقيا وعنصر أساسي في المشهد السياسي الإفريقي.

إفريقيا والثورة الليبية

مسحت الثورة الليبية طاولة كل المصطلحات السياسية السابقة في ليبيا، إن ليبيا اليوم وهو تعيد تأسيس ذاتها لم تعد ليبيا القذافي بأي شكل من الأشكال مما يعني أن متغيرات استيراتيجية وسياسية كثيرة ستطبع العلاقة بين ليبيا الثورة والقارة السمراء أبرزها:

- عودة ليبيا إلى الحضن العربي والفضاء الدولي ممثلا في أمريكا والاتحاد الأوربي، وهو ما يعني أن توطيد العلاقات مع دول "قوات التحرير" وستكون تلك السياسة هي الأولية الأساسية بالنسبة للحكام الجدد في طرابلس؛ ويعني أكثر من ذلك أن ليبيا ستكون ملزمة بإدارة علاقات استثنائية مع المعسكر الغربي الذي طالما وصفته بالامبريالية والعدو الغاشم في بعض فترات العقيد الليبي معمر القذافي.

- أن سعي نظام الثورة إلى إعادة إعمار ليبيا بما يتطلب من تكاليف اقتصادية باهظة، وعلاقات دولية واسعة، سيدفع الليبيين إلى التركيز أولا على مصادر الدعم والتمويل

والصناديق الإنمائية وسيكون حفظ الموجود الليبي أولى من طلب المفقود في إفريقيا، مما يعني أن خزائن طرابلس لم تعد مشرعة أمام الأفارقة.

وينضاف إلى هذا عامل أساسي وهو حساسية الليبيين تجاه الأفارقة، بشكل خاص حيث توجه اتهامات كثيرة إلى المرتزقة الأفارقة بارتكاب مجازر ضد الثوار والمدنيين، وإطالة عمر نظام القذافي، وهو ما سيجعل العمالة الإفريقية ضيفا غير مرحب به في ليبيا الجديدة.

أما على الصعيد الإفريقي فلا شك أن الزعامات التي استفادت خلال سنوات طويلة من المال الليبي تجد في سقوط القذافي:

خطرا كبيرا على اقتصادها المتهاوي وفوق على ذلك على بقاء أنظمة عديدة في المنطقة، اعتمدت المال والدعم الليبي لسنوات طويلة، ومع غياب الدعم المالي والمساندة السياسية فلا شيء سيغري الأفارقة بتطبيع سريع للعلاقة مع نظام المجلس الانتقالي في ليبيا، كما أن بإمكان دول الجوار الإفريقية الإسهام بقوة في توتير المشهد السياسي والاجتماعي في ليبيا الثورة، خصوصا أنها تتمتع بجاليات كبيرة من الليبيين الجدد الذين حصلوا على هويات ليبية خلال حكم العقيد معمر القذافي.

وهو ما يتطلب حنكة سياسية وإدارة قوية للعلاقة مع إفريقيا تستبعد خيار القطيعة ، فلا تزال العلاقة بين البلد وقارته السمراء، قابلة لقراءة جديدة، قوامها المصالح المشتركة والندية السياسية.

ومهما يكن فإن استقرار أجزاء كبيرة من القارة الإفريقية مرتبط باستقرار ليبيا، حيث أن أي اضطراب في بينة النظام السياسي الجديد، يعني بالضرورة تحول دول الجوار إلى جيوب مشتعلة لأطراف الصراع السياسي المفترض في ليبيا، ومع وفرة السلاح الليبي وانتشاره وتعدد أسباب الاضطراب بين مكونات الثورة، فإن أطرافا كثيرا في القارة السمراء ستهتم أكثر باستقرار ليبيا الجديدة، ويتعلق الأمر بشكل أساس بالسودان والتشاد والنيجر ومالي والجزائر.

نحو فهم عربي لإفريقيا

برحيل القذافي تطوى صفحة مثيرة من العلاقات العربية الإفريقية، شابها كثير من الاضطراب والسخونة، وتميزت في مراحل لاحقة بكثير من الحميمية والتوافق، ولا شك أن إفريقيا تظل - رغم ضعفها الاقتصادي وتشتت قرارها السياسي- عمقا استراتيجيا للعالم العربي وحليفا شبه دائم للقضايا العربية والإسلامية مما يتطلب سياسة جديدة تقوم على:

- تفعيل المشترك الحضاري بين إفريقيا والعالم العربي سواء تعلق الأمر بالإسلام الذي ينتمي إليه الملايين من أبناء إفريقيا، والذي كان أحد أهم مداخل القذافي إلى قلوب الأفارقة، وكانت صلواته الجامعية ومساجده المتعددة في دول القارة السمراء بوابة أساسية لإقناع مسلمي إفريقيا بأن القذافي "ثائر مسلم"، يستقبل كل سنة آلاف الأفارقة الذين يعلنون دخولهم في الإسلام مقابل هدايا وإكراميات.

- تشجيع التحالف الإقليمي بين إفريقيا والعالم العربي، سواء عبر منظمات اتحاد المغرب العربي وتفعيل الحضور العربي في الاتحاد الإفريقي وكذا تفعيل التعاون الإيجابي بين الجامعة العربية ومنظمات الاتحاد الإفريقي.

- إعادة اكتشاف إفريقيا الثرية بمواردها الاقتصادية، ومجالاتها الاستثمارية الخصبة بما يسمح بالتأثير الإيجابي في القرار الإفريقي الذي يعتبر الاقتصاد بوابته الأولى والأخيرة.

- دعم قضايا إفريقيا في المنظومة الدولية ومساعدة الإنسان الإفريقي في سعيه إلى الديمقراطية والتنمية الاقتصادية، بما يسمح بولاء إفريقي للقرار العربي المنبني على قيم الديمقراطية والتعايش الإيجابي والحرية بدلا من اضطرابات الموقف الديكتاتوري وتعثر القرار السياسي العربي خلال العقود الماضية.

ومهما يكن من مستقبل للعلاقة العربية الإفريقية فلا شك أن رحيل القذافي قد طوى صفحة مثيرة من تاريخ العلاقات العربية الإفريقية، صفحة مضطربة المسار اختصرت ملامحها في طموح زعيم ثائر لا حد لطموحه.

---

* *محمد سالم ولد محمدو-كاتب موريتاني*

إفريقيا في حقبة ما بعد القذافي.. وجهة نظر إفريقية

*لوك أوبالا***

لا تزال إفريقيا قارة المتناقضات، فعلى أرضها يعيش الفقراء والأغنياء جنبا إلى جنب في تناغم مضطرب؛ ويشترك المستبدون والديمقراطيون في حكم شعوب تلك الوحدة القارية الكبرى، وهي علاوة على كل ما سبق موطن أزمات متكررة وكوارث مستمرة.

ورغم ذلك، تتمتع القارة بإمكانات وموارد طبيعية هائلة، لكن يحول دون استغلالها أن العديد من حكومات الدول الأفريقية غير قادر على تلبية خطط التنمية والأخذ بناصية التقدم. وعلى نحو ما يذهب أودهيامبو وزملاؤه (Odhiambo, et al 1988)، فإن ذلك يرجع إلى أن اليأس والتخلف الاقتصادي والاجتماعي صارا بمثابة معضلات مهيمنة على المشهد الحياتي الإفريقي.

معضلة الصورة النمطية

على هذا النحو تعاني إفريقيا من سوء سمعة وضعتها موطنا لأكثر الناس فقرا وانتهاكا في العالم. وتدور تفسيرات أسباب هذه المشاكل حول المسارات القديمة والمشتركة المتمثلة في التراث الاستعماري، والبعد الاستعماري الجديد، والثقافة الإفريقية، والمناخ، فضلا عن العوامل الحيوية الجغرافية.

ومع ذلك، لا تزال القارة تتمتع بالتنوع، حيث تضم ٢٦ لغة رسمية ونحو ٤٤ عملة مختلفة. ويعتمد هذا القدر الكبير من التنوع على جوانب سكانية وبيئية وعرقية وثقافية (Farjan, 2011). وعلى مستوى الدول، توجد مجالات تباين أخرى تشمل الولاءات القبلية، والاختلافات اللغوية والتباينات الدينية والطبقية المتصارعة الآن، والتي تحركها التحزبات العرقية التي تزاوج بين الثروة الفردية والثروة العرقية.

وتتضح الاختلافات في مدى التقدم والتنمية بين إفريقيا وبقية دول العالم من منظور بسيط جدا حيث تشاهد أفريقيا على حقيقتها في صور الأقمار الصناعية للعالم ليلا، فتظهر فيها تلك القارة مظلمة وسط عالم يلمع بضوء الكهرباء. ومع ذلك، يأخذ هذا الأمر مفاهيم مختلفة تاريخية أساسا، وغالبا ما تكون مضللة وتخفي الحقيقة.

ويلخص هذه المفاهيم آشيل مبيمبي (Achille Mbembe 2001) في الفصل الافتتاحي لكتابه "ما بعد الاستعمار". فمن ناحية، تعتبر إفريقيا "جسدا بلا رأس يهدده الجنون، فارغا من أي تصور للمركز أو الهرمية أو الاستقرار، وتصور على أنها كهف أسود تتداخل فيه كل العلامات المميزة، وتتكشف فيه صدوع تاريخ إنساني تعيس ومأساوي، وخليط من العلامات الغريبة

الناقصة وغير المكتملة، والحركات المتشنجة، أي أنها باختصار هاوية بلا قرار، كل شيء فيها مزيج من ضوضاء وفجوة متزايدة وفوضى عارمة".

وبالرغم من أن إفريقيا مليئة بالمتناقضات -الفقر في وسط الثروة، والفرد في مواجهة المجتمع- إلا أنها تعتبر المكان الذي لا تزال فيه الطبيعة الإنسانية تتمتع بالأصالة، بعد تاريخ مضني من استغلال تجار العبيد والمستعمرين والجماعات الدينية المتنافسة، المسيحية منها والإسلامية.

ورغم أن الطبيعة الإفريقية لم تعد بكرا بعد الوحشية التي صحبت هذه المواجهات، إلا أن الأساطير التي ساقها هيغل عن إفريقيا باعتبارها أرض الطفولة لا تزال سارية. وتجسد إفريقيا في القرن الحادي والعشرين مزيجا من علامات التقدم وآثار تاريخ وحشي طويل من القهر.

وتخفي هذه المفاهيم الحقيقة والمأساة الإفريقية، كما تعكس النظرة المغلوطة -التي كانت سائدة طويلا- إلى الإفريقي باعتباره إنسان طفولي، يعاني الحاجة والندرة في قارة متخمة بالوفرة والعطاء. وحسب هذه الصورة النمطية، يعاني الإفريقي الفقر والمرض والفساد والاضطراب السياسي، ونقص البنية التحتية الأساسية، وعدم رغبة أو عدم قدرة زعمائه السياسيين على وضع وتنفيذ السياسات التي تحقق التنمية البشرية المستدامة (Smit, 2010).

ومن وجهة نظر عديد من المفكرين، فإن هذه التحديات ذاتية النمو والظهور، وستستمر في العصف بمعظم أجزاء القارة في المستقبل بالرغم من الهبات الثرية من الموارد الطبيعية.

وغالبا ما يتسرع العالم الغربي في الإشارة في وسائل إعلامه المسيطرة إلى القادة الأفارقة التقدميين ليكتشف أنهم لا يستطيعون تناول العشاء معا، وغير قادرين على الاتفاق على لغة أو حديث إفريقي مشترك. وتنطبق نفس القصة على الرؤساء ذوي التعليم الغربي أيضا، وفي مقدمتهم رئيس زيمبابوي روبرت موغابي. على هذا النحو، أصبح الإفريقي غير مستقر في طفولته، وأقل ثقة في القوى الغربية. ولكن مع ظهور طبقة وسطى جديدة ورجال أعمال ذوي تعليم جيد نسبيا، ظهرت آليات جديدة. ويضيف فارجان (Farjan 2011) أن النخبة الجديدة التي تعلمت خارج أفريقيا أساسا تحترم القيم الدولية في العمل الجاد والتفوق وتمارس تأثيرا محليا قويا.

وجهان لعملة واحدة

حملت السنوات الأخيرة محاولات عدة ساقها القذافي للتواصل مع مختلف مكونات القارة بأطيافها المختلفة، من الرؤساء والزعماء إلى مجتمع نخبة رجال الأعمال إلى الزعماء القبليين المستبدين (وبعضهم مخادعون ومجرمون حقيقيون). حيث استخدم الثروة النفطية الهائلة

لبلاده لتكوين شبكة تلك العلاقات. ومع ذلك تظل السمة سائدة أن أعماله بقيت متناقضة ومربكة حتى بالنسبة إلى المعجبين به. وقد يؤدي هذا إلى قدر كبير من الإثارة لدى كثير من الأفارقة الذين يعرفون القليل عن القذافي، وخاصة زعامته الوحشية لبلاده.

لم يكن القذافي يمثل استثناء في المشهد الإفريقي الذي ظل يعاني مشكلة القادة المتمسكين بتلابيب السلطة حتى آخر نفس من أعمارهم. فسرعان ما فسد كثير ممن وصلوا إلى السلطة، ولو بنوايا حسنة. وتتمثل السمة المشتركة في أنهم يثرون أنفسهم وأسرهم وأصدقاءهم على حساب الأمة. ونظرا لرغبتهم في البقاء في السلطة وحماية ثروتهم، فإنهم يخرسون كل من يعترض سلطتهم، فيتناقص أصدقاؤهم بمرور الوقت، ويصبحون مهووسين وعدوانيين بصورة متزايدة (Smit, 2010)، كما يتمسكون بالسلطة بصورة يائسة خوفا من أن يفقدوا السيطرة ومن ثم يفقدوا ثرواتهم وحرياتهم، وربما حتى حياتهم.

كانت علاقة العقيد القذافي بإفريقيا مليئة بالمتناقضات، كما كان حكمه زاخرا بالأحداث ومثيرا للجدل. ويفترض العديد من المحللين أن القذافي عند وصوله إلى السلطة - بعد الإطاحة بالملك إدريس في ١٩٦٩ - كان رجلا ذا جذور قبلية ومن دعاة الوحدة العربية. وقد ترك هذا التوجه أثره على أنشطة وبرامج القذافي، بما في ذلك مساندته للمساعي العربية، وهو ما ترجم لاحقا في دعمه للعرب في صراعهم مع إسرائيل ومن ساندوها من الدول الغربية (Odiogor, 2011). ومع ذلك، ظل تقاربه مع العالم العربي مثيرا للجدل.

وخلال مدة حكمه، كان القذافي يتطلع إلى أن يكون داعيا للوحدة الإفريقية. حيث ساند في هذه العملية العديد من حركات التحرير في إفريقيا. ويتضح الدليل على مشاركته في المبادرات التي أطلقها في منظمة الوحدة الإفريقية، والتي تحولت لاحقا إلى الاتحاد الإفريقي (Kron, 2011). حيث تصوره هذه المساعي، بالإضافة إلى مفهومه المتعلق بالولايات المتحدة الإفريقية التي سيصبح رئيسها، على أنه قائد إفريقي وطني فريد، ربما يستطيع إنقاذ القارة السوداء من المكونات المعاصرة للإمبريالية الاستعمارية.

كان القذافي في كثير من الأحيان قوة كبرى في المشهد الجيوبوليتيكي لإفريقيا (Smit, 2010). وبعد مصرعه، ربما سيشهد الاتحاد الإفريقي أوقاتا عصيبة في الجانب التمويلي، ما لم تجد هذه المؤسسة القارية مصادر أخرى بسرعة. ومن الواضح أنه سيكون هناك العديد من الجبهات التي سيحارب عليها الاتحاد الإفريقي وإفريقيا بصفة عامة خلال فترة البحث عن الذات في حقبة ما بعد القذافي.

وكما يقول عدد من الكتاب، وبالرغم من الانتقادات من داخل إفريقيا والعالم الغربي، فإن القذافي أسس قاعدة مساندة واسعة وقوية نسبيا داخل إفريقيا. حيث شكل مناهضو الإمبريالية داخل إفريقيا الجبهة الكبرى المتعاطفة مع القذافي (Wekesa, 2011). ويرجع ذلك إلى أن القذافي كان شوكة في جنب الأمم الغربية التي كانت مترددة في علاقاتها معه، كما كانت مدفوعة بطمعها في الاستفادة من ثروته النفطية الضخمة.

وفي هذا الصدد، ظهر القذافي كمدافع قوي عن ثروات وموارد القارة الإفريقية ضد الاستغلال الطائش من العالم الغربي. ومع ذلك، تطورت إدارة القذافي داخل بلده ليبيا إلى نظام استبدادي خانق للمواطنين. وبالتالي فإنه لم يستطع إدارة ذاته ولا عناده خلال محاولاته المستميتة لمقاومة مد الثورة التي أطلقها محمد بوعزيزي، التونسي البالغ ستة وعشرين عاما (Islamonline, 2011). وأصبح القادة الأفارقة يخشون الآن من احتمال حقيقي للإطاحة بهم من السلطة بالقوة، لو ظهرت ظروف مماثلة للربيع العربي في بلادهم.

ويجب أن نتذكر أن الناتو تدخل في ليبيا بعد أن حاول القذافي قمع المظاهرات المشابهة لتلك التي حدثت في تونس ومصر. حيث استخدم عدد كبير من القادة الأفارقة الشرطة والجيش لقمع مظاهرات مماثلة. وهناك قادة دول وسياسيون أفارقة كثيرون مدينون بالشكر للقذافي. ففي ظل حكمه الذي فاق الأربعة عقود، ساند القذافي بشدة الثورات في الدول الإفريقية، خاصة في جنوب إفريقيا وزيمبابوي (Fayed & Awad, 2011). ففي هذين البلدين، من المعتقد أن مساندة القذافي كانت حاسمة في الإطاحة بحكم البيض، من خلال تقديم الموارد المالية، ومن خلال تقديم المعدات العسكرية وقواعد التدريب. ولذلك يرى قادة مثل زوما في جنوب إفريقيا وروبرت موغابي في زيمبابوي أنه من واجبهم مساندة من ساندهم والدفاع عمن قدم لهم يد العون.

ومن الطريف أن القذافي حدد موقفه كقومي وساند قضية الشعب العربي. وكان هذا النوع من المساندة هو الذي قدمه للقارة الإفريقية، حيث شعرت الأنظمة القمعية في جنوب إفريقيا بأثر سياسات القذافي بتمويله الكبير لحركات التحرر. ومن خلال هذه المحاولة، اكتسب الاحترام وتمتع بالدعم من الأفارقة بالإضافة إلى جزء من المجتمع العربي. ومن الملاحظ أن مساندته وتمويله للأطراف غير الحكومية مثل منظمة التحرير الفلسطينية والجيش الجمهوري الأيرلندي والمؤتمر الوطني الإفريقي، وغيرها، كان يحظى بتقدير كبير من قسم كبير من الشعوب الإفريقية (Kron, 2011).

وبصفة عامة، ينظر الأفارقة إلى القوى الغربية كقوى إمبريالية مستغلة. وقد استمر هذا منذ سنوات ما بعد الاستقلال. ففي العديد من الجوانب، كان هذا المفهوم يساهم في مساندة الأفارقة للقذافي، حتى عندما كانت أفعاله لا تحظى بالتأييد. ومن المؤسف أن هذا كان ملحوظا

منذ ١٩٨٨ خلال تورط عملاء المخابرات الليبية في إسقاط الرحلة ١٠٣ لطائرة "بان أمريكان" الأمريكية فوق لوكيربي (Giovanni,2011). وترتب على ذلك توتر كبير شهدت ليبيا من بسببه عقوبات قاسية من العالم الغربي.

وإفريقيا عبارة عن قارة ذات تطلعات سياسية متناقضة، وينتشر فيها قادة مثل العقيد القذافي الذي كان رئيسا للاتحاد الإفريقي من ٢٠٠٩ إلى ٢٠١٠. ويوجد لدى القادة الأفارقة مواقف متناقضة تجاه نمط سياسات القذافي. فقد كافح كثيرا لفرض نفسه على السياسة الإفريقية من خلال الاستثمارات الضخمة في بنك التنمية الإفريقي، الذي تعتبر ليبيا أكبر المساهمين فيه. وكان مستوى تدخله في السياسة الإفريقية يرجع جزئيا إلى مشروعاته الكبيرة في عديد من الدول الإفريقية.

ومن الملاحظ أن القذافي تمتع بحفاوة كبيرة حتى من بعض زملائه الرؤساء في إفريقيا. ويصرح أفارقة كثيرون بأنه تطور لديهم شعور بالجاذبية بالمظهر الفريد للقذافي، والإعجاب العام به، وبنمطه المميز في سلوكه السياسي على الساحة الدولية. فقد كان لديه شعور بالتميز عن القادة الأفارقة الآخرين، وكان هذا مرتبطا باحتقاره الشديد للعالم الغربي، وهو شعور كان يؤيده فيه بقوة المتعاطفون معه من مناهضي العنصرية (Islamonline, 2011).

وكان للقذافي استثمارات ضخمة في دول إفريقية عديدة. حيث خلقت هذه الاستثمارات فرص عمل كثيرة وحققت عوائد كبيرة لتلك الدول. إذ أن قراره بالارتباط غالبا بمناهضي الإمبريالية حقق له مساندة هذه القطاعات. وبهذه الصفة أصبح راعيا للكفاح الداخلي في تشاد وليبيريا وأوغندا والعديد من الدول الإفريقية الأخرى. وخلال تلك المواقف المتضاربة كون عددا لا بأس به من الأصدقاء والأعداء.

وقد أشار كثير من الكتاب من أمثال خلف (Khalaf 2011) وكرون (Kron 2011) إلى العلاقات التي أسسها القذافي مع الدول الإفريقية. وفي الواقع، يفترض خلف أن الكثيرين من الأفارقة يعتبرون القذافي بطلا ساعد العديد من الدول الإفريقية الفقيرة. ويتعارض هذا مع أغلبية الليبيين الذين احتفلوا بموت "الطاغية" معمر القذافي ونهاية أربعة عقود من الطغيان والاستبداد.

ففي إفريقيا جنوب الصحراء، بنى القائد الليبي المساجد والمستشفيات واستثمر في شركات الاتصالات وغير ذلك. بل إنه استخدم أموال بلاده لرعاية العديد من المساجد والمستشفيات التي بناها في هذه الدول. ففي مسجد كمبالا (العاصمة الأوغندية) على سبيل المثال، ألزم القذافي نفسه بدفع رواتب الهيئة المكونة من ٢٠ فردا طوال العشرين سنة القادمة. وبمرور الزمن، جذبت جهود القذافي الكثير من النخب الإفريقية إليه، وعندما بدأت الانتفاضة ضد حكمه الذي زاد عن الأربعة عقود، وقع الاتحاد الإفريقي في حالة من الارتباك ولم يعترف سوى بعد شهور طويلة بالمجلس الوطني الانتقالي سلطة حاكمة في البلاد (Kron 2011).

كان القذافي مفعما بالأحلام في قارة عانت فيها شعوب كثيرة من قادة تحلوا بقدر عال من الفساد والتعفن السياسي، والحرص المفرط على تكديس الثروة التي جمعوها بطرق غير شريفة. وكان القذافي يحمل في جعبته العديد من الألقاب الرنانة، لم يكن آخرها تتويج نفسه "ملك ملوك إفريقيا". وهذا لا يختلف كثيرا عن الألقاب الفخمة التي منحها لنفسه عيدي أمين في أوغندا، وموبوتو في جمهورية الكونغو الديمقراطية. وقد ربطت هذه الألقاب القذافي بالزعماء والملوك التقليديين، وإن لم تمنحه فرصة تكوين صداقات سوى مع قليل من الزعماء والرؤساء في القارة، أما الأصدقاء الكثر الذين انضموا إلى موكب القذافي فكانوا قليلي التأثير السياسي في شؤون القارة.

ومع ذلك، منحت هذه السلوكيات الغريبة القذافي وضعا جيدا مع العديد من الأفارقة، حتى أنه اعتبر بطلا حتى في موته. ففي زيمبابوي، ساند القذافي كفاح الرئيس روبرت موغابي من أجل التحرر ضد نظام الأقلية البيضاء الذي انتهي في ١٩٨٠. وينظر إلى هذه المواقف باعتبارها مساندة للكفاح ضد التدخل الأجنبي في الشئون الإفريقية. ومن الجدير بالذكر أنه حتى بالنسبة لبعض الأفارقة الذين لم يساندوا حكم القذافي، كانت الصور والمشاهد الدموية الملتقطة قبيل وبعد مصرعه تؤثر على الكثيرين منهم. ويمكن القول بشكل عام، أن القذافي سيظل في إفريقيا واحدا من أعظم القادة الذين أثروا على أجيال عديدة.

بين الداخل الليبي والخارجي الإفريقي

كان القذافي محظوظا أيضا، لأنه قاد بلدا استفاد اقتصادها كثيرا من عائدات النفط، التي ساهمت عمليا بكل حصيلة الصادرات و٣٠% من الناتج المحلي الإجمالي. حيث اجتمعت عائدات النفط مع أعلى مؤشر تعليم في إفريقيا لتعطي ليبيا أعلى نصيب اسمي للفرد من الناتج المحلي الإجمالي في إفريقيا. وهكذا فإنه فيما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠١١، سجلت ليبيا أعلى معدلات نمو تقدر بحولي ١٠% من الناتج المحلي الإجمالي، وهذا أعلى من أية دولة إفريقية أخرى. وخلال هذا المسار، قام القذافي بمحاولات لتغيير حياة المواطنين في بلاده. فانتقلت مجتمعات بأكملها كانت تعيش في بلدات مبنية من الطين لتقيم في مساكن حديثة مزودة بالمياه والكهرباء وأجهزة تلفاز تستقبل أحدث قنوات الأقمار الصناعية. وخلال السنوات الخمس عشرة الأولى من حكم القذافي، زاد عدد الأطباء لكل ألف مواطن سبع مرات، كما زاد عدد أسرة المستشفيات بثلاث مرات (Wekesa, 2011).

ولكن القذافي تبنى أيضا المفهوم الذي صاغه في النصف الأول من القرن العشرين الناشط والمفكر ماركوس غارفي Marcus Garvey بشأن صياغة اتحاد للولايات المتحدة الإفريقية، ووضعه موضع التنفيذ. إذ كانت الولايات المتحدة الإفريقية اسما مقترحا لمفهوم اتحاد فدرالي يضم كل أو بعض الدول الخمس والخمسين ذات السيادة في إفريقيا. وكان معمر القذافي رئيس الاتحاد الإفريقي في ٢٠٠٩، وطرح فكرة الولايات المتحدة الإفريقية. وأكد القذافي على أن

دولة حقيقية واحدة فقط تغطي إفريقيا كلها هي التي بوسعها تحقيق الاستقرار وإدارة الثروة في إفريقيا. وساند أعضاء آخرون في الاتحاد الإفريقي فكرة الوحدة الفدرالية المقترحة اعتقادا منهم أنها ستحقق السلام لإفريقيا "الجديدة".

وبينما كان مصرع القذافي مثار حزن ورثاء لدى الأفارقة، كان العرب يحتفلون به! فقد كان ينظر إلى القذافي من زوايا مختلفة. فعلى سبيل المثال، كان القذافي يعتبر مستبدا في ليبيا، لكنه من ناحية أخرى كان بطلا في إفريقيا. وهذا ما يسميه أوديوغور (Odiogor 2011) التناقض المحير. بل إن القذافي كان يعتبر بطلا في بعض المناطق في إفريقيا، بينما يعد في البعض الآخر بمثابة متطفل غير مرغوب فيه ساهم في الكثير من الانقلابات في القارة السوداء.

وقبيل مصرعه، كان القذافي قد انضم لقائمة المتهمين المطلوبين للمحكمة الجنائية الدولية، وفي مقدمتهم الرئيس السوداني عمر البشير. كانت تهم القذافي تشمل الأمر بقتل المدنيين الذين كانوا يحتجون ضد حكمه الذي طال لاثنين وأربعين عاما، تلك الاحتجاجات التي صارت تعرف الآن بالربيع العربي.

وكما حدث مع زين العابدين في تونس وحسني مبارك في مصر، فقد أطاحت قوى المعارضة بمساعدة القوى الغربية بالقذافي بعد أربعة عقود من الحكم الفردي لكبرى الدول المنتجة للنفط في شمال إفريقيا.

وتهدد الثورات قادة عربا آخرين، في كل من سوريا واليمن والبحرين وغيرهم. ويبدو أن موجة الربيع العربي قد تأخرت عن الوصول إلى بقية القارة الإفريقية. وإن كانت الأحداث في أوغندا في الماضي القريب توضح أن تطورات مماثلة يمكن أن تكون في الطريق قريبا، ما لم تتخذ إجراءات لتلبية مطالب الشعوب.

وبالرغم من أن ثورات الربيع العربي بدأت كاحتجاجات جماهيرية ضد النظم القمعية، إلا أنها تصاعدت إلى اشتباكات مسلحة. ولكن الحالة الليبية تدهورت بسبب المحسوبية التي أصبحت تمثل نمط قيادة القذافي الذي عين أقاربه في المواقع الأمنية الحساسة في الحكومة كإستراتيجية لضمان قيادته الاستبدادية (Giovanni, 2011).

وفي نظر الكثيرين من الأفارقة كانت رؤية جسده مضرجا بالدماء على شاشات التليفزيون، وموته العنيف، مجرد فصل حزين آخر في رواية طويلة لتدخل القوى الغربية في الشئون الإفريقية. وبالنسبة للعرب، كان الجسد الغارق في دمائه للقائد الليبي معمر القذافي يرسل رسالة واضحة إلى القادة العرب الآخرين الذين يصارعون للبقاء في السلطة ضد رغبة شعوبهم. إذ يرون أنه يستحق المصير الذي آل إليه لما اقترفته يداه من تدمير حياة شعبه لعقود وفتح النار عليه قبل سقوطه.

ويرى كثيرون في العالم العربي أن فترة حكم القذافي لليبيا التي فاقت الأربعة عقود كانت بمثابة فترة بالغة التهميش للشعب الليبي لم يستطع فيها تحديد مستقبله أو مصيره. فقد عاش العقيد في عالمه الخاص، وحكم ليبيا كما لو كانت ضيعة تملكها أسرته، وأخضعها لوحشية رؤية وهمية. وحتى بعد سقوط طرابلس أثناء الاضطرابات، كان لا يزال مقتنعا بأن الليبيين ظلوا في جانبه، فانتقل إلى مسقط رأسه في سرت مستمرا في المقاومة، وكان يقول لمؤيديه ممن بقوا حوله إن النصر على مرمى البصر.

وتوضح التقارير الإعلامية أن الليبيين احتفلوا بسقوط القذافي باعتباره طاغيا مستبدا ومساندا للإرهاب. وبالإضافة إلى ذلك، كانوا يرون أنه أضاع مواردهم في محاولاته اليائسة للظهور في بقية إفريقيا، حيث أهدر قدرا بالغا من موارد ليبيا في بناء ممتلكات واستثمارات كان العرب يعتبرونها تبديدا للموارد. فعندما استولى القذافي على السلطة من الملك إدريس في ١٩٦٩، كانت لديه طموحات كبيرة للوحدة العربية. ومع ذلك، كان القادة العرب الآخرون يعاملونه بشك، ربما بسبب نزعته "الثورية" (Islamonline, 2011). وهكذا فإنه من الثمانينيات فصاعدا، حوّل القذافي اهتمامه من العالم العربي إلى إفريقيا جنوب الصحراء. وسعيا وراء تحقيق هذا الحلم بحماس، وباستخدام دولارات ليبيا البترولية الهائلة، موّل العقيد أنشطة الاتحاد الإفريقي وأسس شركات عبر القارة وجمع في نمط حكمه بين أساليب الملوك والقادة التقليديين.

وحتى بعد مصرعه، ستبقى استثمارات ليبيا الضخمة في الدول الإفريقية مصدرا محتملا للصراع بين المجلس الوطني الانتقالي وأبناء القذافي والدول الإفريقية. وحسبما يذهب الليبيون، فإن أحدا لا يمكنه تخيل مقدار الرعب الذي سببه رئيس لشعبه، بمثل ما فعل العقيد معهم. فخلال الثورة لقي أكثر من خمسة عشر ألف ليبي مصرعه، فضلا عن خمسة وأربعين ألف جريح. وأدى إصرار القذافي على السلطة إلى ترويع شعبه بأساليب تذكرنا بأشكال الإبادة الجماعية. وكان الإرهاب الذي مارسه على شعبه لا يصدق. إذ كان الناس يحشرون في بيوتهم أو في مخابئ مزدحمة غير صالحة للسكن، هذا إذا ما استطاعوا العثور على مأوى.

وهناك مناسبات عديدة اقتحمت فيها قوات القذافي المساكن الخاصة لتثير الذعر وتعيث خرابا في حياة الأسر الآمنة، مع إطلاق النار بجنون، والاغتصاب بلا تمييز. وفي بعض الحالات كان يتم اغتصاب أسر بكاملها بما في ذلك الرجال والأطفال. وكما يورد فايد وعوض (Fayed and Awad 2011) عن تنفيذ هذه الأعمال الجنونية القاتلة، كان النظام يستخدم مرتزقة مجلوبين من دول إفريقية أخرى تشمل الحرس الجمهوري التشادي. وحصل كذلك على مرتزقة من أماكن بعيدة من دول مثل كولومبيا في أمريكا اللاتينية. ولم يكن ممكنا تنفيذ تلك الأعمال سوى لأن السلطة الحقيقية كانت في أيدي أسرة القذافي فقط.

وكما يقول بوسوتيل (Busuttil 2011) ومؤلفون آخرون، لم يعترف القذافي الطاغية بحق المواطنين في الاحتجاج. وكان أيضا مديرا سيئا لموارد البلاد، ولذلك فإنه ليس مدهشا في بلد

كان فيه النفط مجانا تقريبا أن يتصاعد سعره من عشرين سنتا للتر إلى خمسة دولارات في غضون أسابيع قليلة من الاحتجاجات. وأصبحت السلع الأساسية أكثر ندرة وأعلى ثمنا. وكان يقتل مواطنيه بلا شفقة، كما كان ينكر عليهم حق التمتع بحصيلة مواردهم الطبيعية (النفط) لأنه كوّن ثروة كبيرة مع أقاربه. وكان مثل العديد من القادة الأفارقة الآخرين، يعتبر ثروة وموارد البلاد ملكا خاصا له، ويتضح هذا من سلوكه المبذر واللامبالي في الإنفاق أثناء رحلاته الدولية. وبالإضافة إلى ذلك، ركز العقيد على أقاربه ونسي أصحاب الحق الأصليين في هذه الثروات من أبناء الشعب الليبي.

وقد قضى حكم القذافي على وجود الإطار المؤسسي للخلافة عقب حكمه الاستبدادي الشمولي. ففي ليبيا كان يعتبر من المحظورات أن تناقش خطط خلافة حكم القذافي. حيث كان يعتبر نفسه حاكما أبويا، وهو ما يفسر لماذا كان يقبل (بل ويطالب) بأن يلقى معاملة ملكية أو رئاسية بما في ذلك التقبيل ومنح الألقاب الفخمة وإظهار الاحترام (Smit, 2010). وكان تقديمه على أنه موحد إفريقيا يجعله يتحول إلى زعيم بالمعنى الحرفي، مما يتطلب التحية من الحاشية، وقرع الطبول، وقراءة التعويذات في جميع أنحاء إفريقيا.

لقد منح القذافي مواقع تنفيذية قوية وإستراتيجية لأقاربه ومنهم أبنائه وأصهاره (Kanuma, 2011). وكان هذا بهدف تحقيق أقصى حماية له مع تزايد مرضه بجنون العظمة. وسيطر أيضا على صياغة القوانين، وتحكم في الموارد الوطنية، واختلس منها، وأشرف على برنامج التنمية الوطنية، بما في ذلك منح العقود الفاسدة (Busuttil, 2011). وقد مكن هذا التركيز الكبير للسلطات في أيدي القذافي من تأسيس ورئاسة نظام المحسوبية في ليبيا. وتتضح طبيعته الأنانية عندما طرح فكرة الولايات المتحدة الإفريقية، التي أراد أن يصبح رئيسا لها. ويبدو أن الليبيين لم يكونوا موافقين إلى حد بعيد على إنفاقه المسرف ومشروعاته ذات الدوافع السيئة في إفريقيا وحتى في الخارج من أجل تحقيق تفوقه الشخصي (Khalaf, 2011). فقد كان ينفق موارد الدولة كما لو كانت موارده، بينما كان يتجاهل أمن ورفاهية المواطنين. واستطاع أن يدمر تماما المبادئ الديمقراطية في ليبيا، ولم تكن هناك انتخابات مطلقا، لأنه أصبح "القائد للأبد". وفي الحقيقة يعتبر موت القذافي راحة كبيرة للشعب الليبي.

لماذا أحبوا القذافي؟

من المعتقد أن كثيرا من الأفارقة وقادتهم يعتبرون القذافي بطلا بسبب بقائه حتى آخر لحظة في حياته مكافحا ضد الناتو والمجلس الوطني الانتقالي. فمن هذا المنظور، يرى كثير من الأفارقة القذافي زعيما رفض سقوط بلاده رهينة للمعتدين الأجانب والانتهازيين. وقد أحزن موته الأفارقة الذين كانوا يتطلعون إليه كمدافع عن الحرية، وربما كان الشخص الوحيد الذي كان يستخدم أمواله وشجاعته للوقوف ضد السيطرة الغربية (Wekesa, 2011).

وبالإضافة إلى ذلك، يتضح أن مساندة القذافي لحركات التحرر عبر القارة الإفريقية جعلته يحتل مكانة مرموقة لدى الكثيرين، من أولئك الذين وضعوه إلى جوار بطل جنوب إفريقيا نيلسون مانديلا الذي أطلق اسم القذافي على حفيده.

لقد كانت بعض أعمال القذافي مفيدة في تحسين وضع الأفارقة. ويدخل في هذا الإطار مساندته لحركة مناهضة العنصرية في جنوب إفريقيا، وعرقلة الإطاحة بعيدي أمين في أوغندا، وموقفه الإيجابي تجاه بعثة حفظ السلام في الصومال. حيث ساهم كل هذا في مساعدة الناس على الحصول على فرصة الحياة، وفي الوحدة الإفريقية بصفة عامة (Islamonline, 2011).

وبعد أن أصبح مانديلا أول رئيس أسود في جنوب إفريقيا في ١٩٩٤، رفض ضغوطا من القوى الغربية، بما فيها ضغوط رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت بيل كلينتون لقطع العلاقات مع العقيد القذافي، الذي موّل حملة مانديلا الانتخابية.

والقذافي لدي كثيرين في إفريقيا زعيما وطنيا حقيقيا. وكما يضيف سميت (Smit 2010) هناك شعوب أخرى عديدة داخل إفريقيا معجبة بأساليبه المشاكسة المعاندة التي من المؤكد أنها أبعدت الإمبرياليين. وهكذا تكشف الحوارات على قناتي بي بي سي BBC و سي إن إن CNN والمحطات المحلية في الدول الإفريقية أن الكثير من النخب يعتبرون سقوط القذافي ضربة قاضية لاستقلال إفريقيا. فهم يقولون إنه من المحتمل أن يقوي من عزم الإمبرياليين الغربيين على نهب الموارد الطبيعية لإفريقيا.

وطبقا لمصادر أخرى، فقد كان القذافي هو من قدم لكل إفريقيا أول ثورة في عصرها الحديث، أي ربط القارة كلها بالهاتف والتليفزيون والراديو وغير ذلك من التطبيقات التقنية الأخرى مثل الطب اللاسلكي والتعليم عن بعد.

وكانت أدوار القذافي التمويلية الكبيرة واضحة في ١٩٩٢، عندما أسست ٤٥ دولة إفريقية (منظمة الاتصال بالأقمار الصناعية الإفريقية الإقليمية RASCOM) حتى يكون لإفريقيا قمرها الصناعي الخاص بها، وتخلص نفسها من تكاليف الاتصال الباهظة التي تفرضها الشركات الغربية (Wekesa, 2011). ويعتبر الكثيرون أن إنفاقه السخي في هذا الصدد هو الذي طور القارة الإفريقية بأكملها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن خططه المتعلقة بخطوط الأنابيب للقارة الإفريقية وتأسيس العملة المشتركة بناء على الذهب والدينار كانت تلقى ترحيب الكثير من الأفارقة.

ولذلك كان يحظى بالإعجاب لأسباب عديدة. وعلى سبيل المثال، كان يحارب ضد الاستعمار والإمبريالية، وقدم إسهامات هائلة إلى الشعوب المقهورة وأنقذ أرواح الكثيرين في إفريقيا. وكانت إسهاماته مالية وسياسية لأحزاب مثل المؤتمر الوطني الإفريقي في جنوب إفريقيا، وإلى

منظمة شعب جنوب غرب إفريقيا (سوابو) في ناميبيا، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والإخوان المسلمين (Fayed and Awad, 2011). ورعت ليبيا حزب شعب بتسوانا في الأيام الأولى من تكوينه. ولكنه كان مكروها في المقابل من قبل البعض لرعايته لحركات التمرد في دول إفريقية مثل تشاد والسودان وسيراليون وليبيريا.

وكان القذافي يعتبر أيضا من القادة الأفارقة القلائل الذين استطاعوا الوقوف في وجه الأمم الغربية وشن هجوم صريح عليهم وجها لوجه بأنهم كانوا ظالمين في معاملتهم لإفريقيا. وبالرغم من أن هذه الأعمال ضمنت مكانة مرموقة في قلوب كثير من الأفارقة، إلا أن العرب كانوا يعتبرونها مبادرات نفاق نحو القارة السوداء (Busuttil, 2011). وقد يفسر هذا لماذا فشلت محاولته الأولى لتحقيق الوحدة العربية سريعا. وبالتالي كان عليه أن يتحول إلى الوحدة الإفريقية، التي كان يقودها أساسا ليحصل على السلطات الكبرى لرئيس الدولة الإفريقية الاتحادية كلها. ولكن كما يقول أوديوغور (Odiogor 2011) لم يستطع هذا المسعى أن يدوم طويلا أيضا - بعد تسرب تقارير عن المعاملة غير الإنسانية والتعذيب وترحيل الأفارقة من ليبيا.

ومن جانب آخر، كانت سياسات القذافي تظهره أحيانا متحمسا للإسلام وأقرب للمجتمع الإسلامي. وكان عرضه لمساندة عيدي أمين دكتاتور أوغندا خلال حكمه الدكتاتوري والإرهابي في أوغندا يشهد على ذلك. وكما يقول (Kanuma 2011) - أظهر القذافي كراهيته لنيجيريا عندما لام الشعب المسلم في نيجيريا على ضعفه لخضوعه لحكم المسيحيين.

ما لم نعرفه عن القذافي

ختاما، يمكن أن يقال إن المصداقية التي منحت للقذافي في إفريقيا يمكن أن تكون مبالغا فيها في العديد من الجوانب. ففي عدد من الحالات، سببت استثماراته توترات سياسية في بعض الدول كما كشفت الحالة الكينية. إذ أن الاستحواذ الاستثماري على أحد فنادق الملكية العامة قد أحيط بالسرية وفاحت منه رائحة الفساد. وهذا يشير إلى الاستفادة من تبديد الموارد العامة، وهو الشيء الذي يقول الكثير من الأفارقة إن القذافي كان يحاربه، وخاصة ضد الإمبرياليين الغربيين. ولا تزال أسئلة عديدة مطروحة في هذا الصدد.

ولم تكن هناك معرفة كبيرة بما كان يحدث داخل ليبيا. فقد كان لدى الإعلام تقارير انتقائية عن قيادة القذافي في الداخل، وبالتالي لم يكن الأفارقة يعرفون هذا الرجل جيدا. ولذلك فقد بهرنا بمسرحياته الطفولية التي كانت تسلي الأفارقة في العديد من الحالات. ومع ذلك، لم يكن القادة يستطيعون التعرض له خشية مساندته للانقلابات في بلادهم. أي أننا لم نعرف القذافي بصفة عامة.

وبـالرغـم مـن أن العديـد مـن الدارسـين والمعلقـين السياسـيين يتسـرعون فـي الإشـارة إلـى أن العلاقات المستقبلية بين ليبيا وبقية الدول الإفريقية ستكون صعبة - إلا أنني أرى أن الأمر سابق لأوانه. فسوف تظهر عوامل عديدة ستؤثر على العلاقات بين الدول. وستشمل هذه العوامل السياسة والاقتصاد والاجتماعية. وبالإضافة إلى ذلك، سيحتاج النظام الجديد إلى أصدقاء داخل إفريقيا ومن خارجها أيضا. وبصفة عامة، ستتأثر مصالح الدولة بناء على هذه الترتيبات. وتتمتع إفريقيا بموارد عديدة تحتاجها ليبيا. وعلى هذا فإن السنوات القليلة القادمة ستوضح بجلاء القواعد الجديدة للعلاقات. أما الآن فسيكون هناك حالة من السيولة النسبية في العلاقات.

***** لوك أوبالا-كاتب وجامعي كيني***

المصادر

Al Jazeera, (2011). Libya: Media on the frontlines of revolution. Retrieved on November 4, 2011 from http://english.aljazeera.net/programmes/listeningpost/2011/09/201193883840514 6.html

Blair, K. (2011). Libya Reacts to Gaddafi's Death on Social Media. Retrieved on November 4, 2011 from http://socialtimes.com/lybia-reacts-to-gaddafis-death-on-social-media_b81970

Busuttil, S. (2011). Muammar Gaddafi's 'reign of terror.' Retrieved on November 4, 2011 from http://www.timesofmalta.com/articles/view/20110629/opinion/Muammar-Gaddafi-s-reign-of-terror-.372967

Farjan, S. (2011). KILLING: Colonel Gaddafi, his land and oil – Who's next? Retrieved on November 4, 2011 from http://www.lemauricien.com/article/killing-colonel-gaddafi-his-land-and-oil-%E2%80%93-who%E2%80%99s-next

Fayed, S. & Awad, M. (2011). Arabs see Gaddafi's death as message to rulers. Retrieved on November 3,2011 from http://www.reuters.com/article/2011/10/20/us-libya-gaddafi-arabs-idUSTRE79J77720111020

Giovanni, J. (2011). My Walk through the Valley of Death. Retrieved on November 4, 2011 from http://www.thedailybeast.com/newsweek/2011/10/16/libya-gaddafi-s-reign-of-terror.html

Griffiths, B. (1941) Morality and the Market Place: Christian Alternatives to Capitalism and Socialism

Islam Online (2011). Africa Sub-Saharans Mourn â Heroâ Gaddafi. Retrieved on November2, 2011from

http://www.islamonline.com/news/articles/2/Africa-Sub-Saharans-Mourn-Hero- Gaddafi htmlourn-Hero-Gaddafi.html

Kanuma, S. (2011). Gaddafi is gone: what are Africans mourning? Retrieved on November 4, 2011 from http://focus.rw/wp/2011/10/gaddafi-is-gone-what-are-africans-mourning

Khalaf, R. (2011). Gaddafi's death bodes ill for Arab despots. Retrieved on November 4, 2011from http://blogs.ft.com/the-world/2011/10/gaddafis-death-bodes-ill-for-arab despots/#axzz1cfvTEZ1W

Kron, J. (2011). Many in Sub-Saharan Africa Mourn Qaddafi's Death. Retrieved on November 2, 2011 from http://www.nytimes.com/2011/10/23/world/africa/many-in-sub-saharan-africa-mourn-gaddafis-death.html?_r=1

.Mbembe, A (2001) On the Post Colony, University of California Press, Berkeley, USA

Odhiambo, T.R et al; (1988) Hope Born out of Despair: Managing the African Crisis, Heinemann, Nairobi

Odiogor, H. (2011). Gaddafi the enigma: A villain or a hero? Retrieved on November 2, 2011from

/http://www.vanguardngr.com/2011/10/gaddafi-the-enigma-a-villain-or-a-hero

O'Neill , M. (2011).How YouTube Is Aiding The Libyan Revolution. Retrieved on November 4, 2011 from http://socialtimes.com/youtube-libyan-revolution_b39678

Mamdani, M. (1996) Citizen and the Subject, Fountain Publishers, Kampala

Smit, E. (2010). Perceptions on Leadership in Africa. The GRLI Partner Magazine. Retrieved on November 2, 2011from http://www.usb.ac.za/Media/News/eon_smit.pdf

Wekesa, B. (2011). Gaddafi's death no celebration for Africa. Retrieved on November 4, 2011from

/http:// w w w .globaltimes.cn/NEWS/tabid/99/ID/680842

Gaddafis-death-no-celebration-for-Africa.aspx

Al Jazeera, (2011). Libya: Media on the frontlines of revolution. Retrieved on November 4, 2011 from http:// english .aljazeera .net /programmes /listeningpost /2011/09/201193883840514 6.html

Blair, K. (2011). Libya Reacts to Gaddafi's Death on Social Media. Retrieved on November 4, 2011 from http :// socialtimes .com /lybia-reacts-to-gaddafis-death-on-social-media_b81970

Busuttil, S. (2011). Muammar Gaddafi's 'reign of terror.' Retrieved on November 4, 2011 from http:/ / w w w . timesofmalta.com/articles/view/20110629/opinion/Muammar-Gaddafi-s-reign-of-terror-.372967

Farjan, S. (2011). KILLING: Colonel Gaddafi, his land and oil – Who's next? Retrieved on November 4, 2011 from http: / / w w w . lemauricien .com /article/killing-colonel-gaddafi-his-land-and-oil-%E2%80%93-who%E2%80%99s-next

Fayed, S. & Awad, M. (2011). Arabs see Gaddafi's death as message to rulers. Retrieved on November 3,2011 from http: / / w w w . reuters .com /article/2011/10/20/us-libya-gaddafi-arabs-idUSTRE79J77720111020

Giovanni, J. (2011). My Walk through the Valley of Death. Retrieved on November 4, 2011 from http: / / w w w . thedailybeast .com/newsweek/2011/10/16/libya-gaddafi-s-reign-of-terror.html

Griffiths, B. (1941) Morality and the Market Place: Christian Alternatives to Capitalism and Socialism

Islam Online (2011). Africa Sub-Saharans Mourn â Heroâ Gaddafi. Retrieved on November2, 2011from

http: / / w w w . islamonline.com /news /articles/2/Africa-Sub-Saharans-Mourn-Hero- Gaddafi htmlourn-Hero-Gaddafi.html

Kanuma, S. (2011). Gaddafi is gone: what are Africans mourning? Retrieved on November 4, 2011 from http://focus.rw/wp/2011/10/gaddafi-is-gone-what-are-africans-mourning

Khalaf, R. (2011). Gaddafi's death bodes ill for Arab despots. Retrieved on November 4, 2011from http:// blogs .ft .com/the-world/2011/10/gaddafis-death-bodes-ill-for-arab despots/#axzz1cfvTEZ1W

Kron, J. (2011). Many in Sub-Saharan Africa Mourn Qaddafi's Death. Retrieved on November 2, 2011 from http: / / w w w . nytimes .com /2011/10/23/world/africa/many-in-sub-saharan-africa-mourn-gaddafis-death.html?_r=1

.Mbembe, A (2001) On the Post Colony, University of California Press, Berkeley, USA

Odhiambo, T.R et al: (1988) Hope Born out of Despair: Managing the African Crisis, Heinemann, Nairobi

Odiogor, H. (2011). Gaddafi the enigma: A villain or a hero? Retrieved on November 2, 2011from

/http: / / w w w . vanguardngr .com /2011/10/gaddafi-the-enigma-a-villain-or-a-hero

O'Neill , M. (2011).How YouTube Is Aiding The Libyan Revolution. Retrieved on November 4, 2011 from http://socialtimes.com/youtube-libyan-revolution_b39678

Mamdani, M. (1996) Citizen and the Subject, Fountain Publishers, Kampala

Smit, E. (2010). Perceptions on Leadership in Africa. The GRLI Partner Magazine. Retrieved on November 2, 2011from http: / / w w w . usb.ac.za /Media/News/ eon_smit.pdf

Wekesa, B. (2011). Gaddafi's death no celebration for Africa. Retrieved on November 4, 2011from

/http:// w w w .globaltimes.cn/NEWS/tabid/99/ID/680842

Gaddafis-death-no-celebration-for-Africa.aspx

انتهى